JQSS – Journal of Quran Sunnah Education and Special Needs
Vol. 7 June 2023, no. e-ISSN 2590-3799

الانزياح الدلالي لصيغتي" أصبح وظل" في القرآن الكريم وعلاقته بالسياق

(The semantic shift of the two formulas "Asbaha and Zholla" in the Holy Qur'an and its relationship to the context)

Abdul Ghani Bin Md Din
Fakulti Bahasa Arab, Universiti Islam Antarabangsa Sultan Abdul Halim Mu'adzam Shah (UniSHAMS)

Omar bin Md Din
Fakulti Bahasa Arab, Universiti Antarabangsa Al-Madinah

Ragab Ibrahim Ahmed Awad
Fakulti Bahasa Arab, Universiti Islam Antarabangsa Sultan Abdul Halim Mu'adzam Shah (UniSHAMS)

Ummu-Hani Abas
Fakulti Bahasa Arab, Universiti Sains Islam Malaysia (USIM)

Article Progress
Received: 17 March 2023
Revised: 31 March 2023
Accepted: 14 April 2023

ملخص البحث

تسعى هذه الدراسة إلى تحديد معنى "أصبح وظل" في القرآن الكريم؛ وذلك لأن هاتين الكلمتين تتعدد دلالتهما حسب السياق التي وردت فيها، وقد اصطلحناه في هذه الدراسة بالانزياح، وقد بين ذلك علماء العربية؛ ولفهم هذا المقصود جاءت فكرة هذه الدراسة بمعرفة الانزياح الدلالي لصيغتي (أصبح، وظل) على الزمن في القرآن الكريم ليكون دليلا على صحة هذه المقولة، وستهدف الدراسة إلى تحقيق عدة الأمور وهي توضيح مفهوم الانزياح، وبيان دلالة الانزياح في "أصبح وظل" على الزمن، وكيفية تحديد زمنهما في القرآن الكريم، وتبيان علاقة التراكيب والسياق في تحديد انزياح "أصبح وظل" الدلالي، وتحديد القرائن التي تعين على معرفة زمن "أصبح وظل" في النصوص القرآنية. وستتبع الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، وقد توصلت الدراسة إلى أن من خصائص صيغتي (أصبح، وظلَّ): الانزياح والعدول في الدلالة على الحدث، وأن دلالتهما تعتمد على ما تحدده القرائن الخارجية، مع بقاء علاقتهما بالزمن المعهود لهما في سياق بعض الآيات التي تقتضي ذلك. وقد تبين أن دلالة (ظل) تتغير وتخرج عن مدلول الصيغة الزمنية ويحدث لها انزياح دلالي، وذلك بالقرائن الخارجية والسياق الذي يبني لها دلالة جديدة، أو خاصة بما سيقت من أجله، فدلالتها على الوجود في حيز الارتباط بصفة ملازمة صارت أقرب إلى الديمومة لكشف مزيد من التعلق وعدم الانفكاك، وأن الانزياح الدلالي له وسائله البلاغية كالمجاز، والكناية، والاستعارة، وكل أسلوب من شأنه انزياح المعنى وهو ما يكشف العلاقة بين البلاغة وعلم الدلالة

الكلمات المفتاحية :الانزياح الدلالي، أصبح، ظل، السياق

Abstract

This study seeks to determine the meaning of "Asbaha" and "Zholla" in the Holy Quran; This is because these two words have multiple meanings according to the context in which they were found, and we have fixed it with displacement, and Arabic scholars have shown that in order to understand this intent, the idea of this study came to know the semantic shift of the two formulas "Asbaha" and "Zholla" over time in the Holy Qur'an to be evidence of the validity of this saying and how to determine their time in the Holy Qur'an, to show the relationship of structures and context in determining the semantic shift of the two words and to identify the clues that helped to know the time of the two words in the Quranic texts. The study will follow the descriptive analytical method. The study concluded that the characteristics of the two formulas "Asbaha" and "Zholla": displacement and reversal in denoting the event, and that their significance depends on what is determined by external evidence, while their relationship remains with the time entrusted to them in the context of some verses that require this. It has been shown that the meaning of (Zholla) changes and deviates from the meaning of the temporal formula, and a semantic shift occurs to it, and that is due to external evidence and the context that builds a new meaning for it, or specific to what it was cited for. Attachment and

Keywords: Semantic Shift, Asbaha, Zholla, Context.

1. تمهيد

تنوعت دلالة (أصبح) على الزمن؛ فتارة تلتزم دلالتها المعروفة (على الماضي)، أو حدوث الفعل وقت الصبح، وتارة تخرج عنها بانزياح دلالي وفق السياق إلى ما تكشف عنه من معانٍ ودلالات، ولا تقوم صيغة (أصبح)ذاتها بالدلالة عليه، وخُصَّ وقت الصباح بالذكر لأنه بَدْءُ النهار والانبعَاث إلى الأُمور، وُمْنطَلَقُ الهِمَّة ومَظِنَّةُ النشاط.

والقرائن اللفظية والمعنوية تعين على فهمٍ أشملَ للزمن، ولا تُختزل في المجال الصرفي، ويكون الزمن النحوي جزءا من علاقات التراكيب والسياق، فدلالة الفعل على زمن ما تتوقف على موقعه وعلى قرائن السياق. وتعددُّ القرائن يرقى أن يكون دليلا على المعنى المراد، بل يقارب قوة الدليل النصي. ومعنى ظل: اتصاف المخبر عنه بالخبر نهارا. أي فعل الفاعل نهارا، وأكثرُ مَنْ ذكروا هذه الدلالة إنما ألجأهم إليها النظر إلى الظِلِّ، الذي لا يكون إلا نهارا حيث الشمس ساطعة، ولكن تتم دلالة (ظل) بأن يراد بها معنى دام أو طال بانزياح دلالي. "وكثير من الألفاظ أصله مُضِيٌّ واستعمل استعمالا شائعا فيما لا يشاركه"(الرازي، 1420هـ، 99/28- 100)، فتأتي "ظلَّ" وقد جردها سياقها من دلالتها الزمنية المعهودة، وهي الدلالة على الوقوع نهارا. وهذان الفعلان زمانُهما غير منقطع وقت الإخبار به، "فالزمن النحوي ظاهرة تتوقف على الموقع والقرينة لا على الصيغة المجردة"(فاضل مصطفي الساقي، 1969م، ص146)، فدلالة (أصبح، وظل) لا تدل دائما على زمن معين اتفق عليه النحاة وفق صيغتيهما، بل يعين السياق دلالتيهما وفقا لما يقتضيه.

وقد تتبع المفسرون في تفاسيرهم دلالة الأفعال حال تنوعها في الدلالة الزمنية في سياق النص، فـ"السياق يحمل من القرائن اللفظية والمعنوية والحالية ما يعين على فهم الزمن في مجال أوسع من مجرد المجال الصرفي المحدود، وهكذا يكون نظام الزمن جزءا من النظام الصرفي، أما الزمن السياقي النحوي فإنه جزء من الظواهر الموقعية السياقية، لأن دلالة الفعل على زمن ما تتوقف على موقعه وعلى قرينته في السياق"(تمام حسان، 2006م، ص105). وجواز الاستعمال لا ينافي الأصل. وهذه الدراسة تتكون من مقدمة، ومبحثين: الأول: السياق وتوجيه دلالة (أصبح). والمبحث الثاني: دلالة (ظلَّ) بين التقييد بزمنها وإطلاق معناها. ثم الخاتمة والنتائج، فالمصادر والمراجع.

2. شكلة البحث

تمتاز مفردات اللغة العربية بتعدد المعاني وبعض الأفعال بتعدد الأزمنة، ويتحدد ذلك بفهم المعنى في سياق الجملة العربية أو ما يعرف بالانزياح، وليس معنى هذا أننا أحرار في ذلك ولكن وفق ما حدده أهل العربية، ولفهم هذا المقصود جاءت فكرة هذه الدراسة بمعرفة الانزياح الدلالي لصيغتي (أصبح، وظل) على الزمن في القرآن الكريم ليكون دليلا على صحة هذه المقولة.

3. أهداف البحث

تهدف الدراسة إلى تحقيق الأمور الآتية:

i. توضيح مفهوم الانزياح .
ii. بيان دلالة الانزياح في "أصبح وظل" على الزمن.
iii. كيفية تحديد زمنهما في القرآن الكريم .
iv. تبيان علاقة التراكيب والسياق في تحديد انزياح "أصبح وظل" الدلالي .
v. تحديد القرائن التي تعين على معرفة زمن "أصبح وظل" في النصوص القرآنية.

4. مناهج البحث

وستتبع الدراسة المنهج الوصفي التحليلي حيث تقوم باختيار بعض نماذج (أصبح) و (ظل) من الآيات القرآنية وبيان دلالة الانزياح في "أصبح وظل" على الزمن، وكيفية تحديد زمنهما في القرآن الكريم، وتبيان علاقة التراكيب والسياق في تحديد انزياح "أصبح وظل" الدلالي، وتحديد القرائن التي تعين على معرفة زمن "أصبح وظل" في النصوص القرآنية.

5. نتائج البحث

5،1 مفهوم الانزياح ودوره في توجيه دلالة (أصبح).

ويأتي مفهوم الانزياح في اللغة من الفعل" زيح" أي الابتعاد والميل. (ابن منظور1414هـ، 470/2) وأما في الاصطلاح هو" الخروج عن أصول اللغة وإعطاء الكلمات أبعادا دلالية غير متوقعة، ولهذا المصطلح في اللغة العربية عدة مرادفات"(بو طران محمد الهادي، 2008م، 160) .وعن الأثر الدلالي للانزياح يذكر الدكتور رجب إبراهيم قوله:" يعد الانزياح أسلوبا بلاغيا مثيرا كونه يحدث أثرا وتأثيرا دلاليا لدى المتلقي، فيأخذه إلى فضاءات أكثر رحابة، وانعكاسات أبعد عمقا من ناحية المعنى والدلالة، فهو ينظر إلى الوظيفة اللغوية بوصفها وظيفة تفاعلية بين المبدع والنص والمتلقي، وليست مجموعة من القواعد التي تتعامل مع اللغة على أنها قوالب لا يمكن تغييرها ولا الخروج عليها وعنها".(رجب إبراهيم، 2022م، بحث منشور).

5،2 دلالة الانزياح في "أصبح وظل" على الزمن في القرآن الكريم

يمتاز النص الديني بالمرونة مع متغيرات الواقع، ويظل على استعداد تام لتقديم إجابات لكل مستجدات الواقع، فالمعاني الجديدة للنص تترآي للقارئ مع كل متغير جديد، وتتأتى هذه المعاني الجديدة بقدرة القارئ على التأويل، أو بمعنى آخر تصبح العلاقة مع النص" علاقة صراع على التأويل بعدما كانت زمن النبي صلى الله عليه وسلم صراعا على التنزيل" وهذا ما يمكن استنتاجه من الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم

قال :" إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يُقَاتِلُ عَلَى تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ كَمَا قَاتَلْتُ عَلَى تَنْزِيلِهِ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا؟ قَالَ: «لَا» قَالَ عُمَرُ: أَنَا قَالَ: «لَا، وَلَكِنْ صَاحِبَ النَّعْلِ»(السنن الكبرى للنسائي 466/7) وبهذا يمكن لاستكشاف التحولات الدلالية في القرآن أن يعزز فهمنا للآثار الدينية والثقافية التي تنقلها هذه الصيغ وغيرها في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة

ويستلزم الانزياح الدلالي لصيغتي" أصبح وظل" في القرآن الكريم أن يكون النص ذا أبعاد مختلفة في المعنى، أي معان كثيرة غير محصورة، فالخصوصية لهاتين الصيغتين لم تعد لازمة لهما في ظل الانزياح الدلالي، والمحك في ذلك هو المعنى الذي يأتي نتيجة للعملية الذهنية الدائرة بين الشخص والنص. فيخرج المعنى من خلال إدراكه ووعيه وثقافته وفهمه للغته. وهذا عين الفهم، وذاك عمل الانزياح.

ويعني ذلك أننا يجب ألا ندرس النص الديني في حقوله الثقافية والتاريخية والاجتماعية التي يوضع فيها، بل يجب أن يدرس بوصفه نص يحمل معان جاءت نتيجة نشاط اجتهادي " يمارَس داخل حقل إنساني مُحمَّل برهانات معنى ووجود خاصة به، تفرض على عملية الاجتهاد وجهة دلالية جديدة يرشح عنها معان جديدة، ومقترحات فهم مختلفة" وجيه قانصو، 2017، بحث منشور)

إن الفعل "أصبح وظل" تدل على زمن معين يختص به، كالدخول في الصباح أو استغراق زمن الصبح، أو الاتجاه والصيرورة في الزمن، تدخل على المبتدأ والخبر لإفادة زمانها في الخبر. وقد تتغير دلالة الفعل الزمنية فتدل على الاستمرار ودوام وقوع الفعل. وقد تُستعمل بمعنى صار، فلا يُلحظ فيها وقت الصباح، بل مطلق الانتقال والصيرورة من حال إلى حال. وقد تكون (أصبح) عبارة عن جميع أوقات الموصوف، فقد أُقيم بعض الزمان مقام كله. وقد "تأتي أصبح بمعنى صارمن غير اعتبار كينونة في الصباح"(أبو حيان، 1420هـ، 293/4).

فأزمنة الأفعال (أمسى، أضحى، أصبح) خاصة، وزمانُ (كانَ) يعُمُّ هذه الأوقات وغيرَها، غير أن صيغة "كانَ" لِمَا انقطع، وهذه الأفعال زمانُها غير منقطع، ألا ترى أنك تقول: "أصبح زيدٌ غنيًّا"، وهو غنيّ وقتَ إخبارك غيرَ منقطع"(ابن يعيش، 2001م، 354/4). تدل هذه الأفعال على أزمنة اختصت بها، وهذا من جهة صيغتها، لكن الانزياح الدلالي يعدل بدلالة الصيغة وفق ما يقتضيه السياق إلى دلالات أخرى، فقد تدل "أصبح" على دلالة زمنية مطلقة من غير أن يُقصد بها إلى وقت مخصوص.

5،3 علاقة التراكيب والسياق في تحديد انزياح "أصبح" الدلالي

وقد بين العلماء علاقة التراكيب في السياق في تحديد الانزياح في "أصبح وظل" ففي قوله تعالى:﴿ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران : آية 103)، لم تأت (ظل) للدلالة على زمن مضى إنما للدلالة على أن المؤمنين اتصفوا بوصف، لما اكتسبوا موجباته، فابتدأوا في القيام بها، وصاروا ملازمين لها، "فأصل استعمال أصبح فيما يصير الشيء آخذا فِي وصفٍ ومُبتدئا في أمرٍ"(الرازي، 1420هـ، 99/28- 10)، .ويذكر ابن عطية أن "(أصبح)، عبارة عن الاستمرار، وإن كانت اللفظة مخصوصة بوقت ما، وإنما خُصت هذه اللفظة بهذا المعنى من حيث هي مبتدأ النهار، وفيها

مبدأ الأعمال، فالحال التي يحسها المرء من نفسه فيها هي الحال التي يستمر عليها يومه في الأغلب"(ابن عطية، 1993م، 484/1، الطبري، 2000م،، 7/7).

قصد ابن عطية إلى معنى الاستمرار في (أصبح)، للدلالة على الدوام المصحوب بقوة البدء، فالحال التي يبدأ بها المرء صباحا يستمر عليها بقية يومه، فالتحول من العداوة إلى الأخوة إنما أوجده إيمان راسخ؛ لذلك كان الاستمرار والدوام، ومن معاني (فأصبحتم) دخلتم في الصباح، أي: حَلَّ عليكم عهد جديد تبدَّلت فيه أحوالكم، وصرتم بنعمة الله أسعد وأعظم. فالإصباح يدل على زوال الحال الذي كان (العداوة والبغضاء)، وحلول الأخوة فَيُحَثُّون على التمسك به، والعمل على دوامه. أي أخذتم في الأخوة وأنتم فيها مستمرون. والنص يؤكد ذلك ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ (آل عمران: آية 103). والصباح وقت الاستبشار والإقبال على الحياة؛ فكأنهم كانوا في ليل الكفر يعمهون، فلما هداهم الله للإيمان زالت الظلمة، وأسفر نور الإيمان فأصبحوا مبصرين حقائق الوجود وغايات حياتهم. فهي من هذا المعنى استعارة التي هي وسيلة من وسائل الانزياح الدلالي.

وفي قوله تعالى:﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة: آية 30)، ذكر أن "(أصبح) عبارة عن جميع أوقاته، أُقيم بعض الزمان مقام كله، وَخُصَّ الصباحُ بذلك لأنه بَدْءُ النهار والِانْبِعَاث إلى الأُمور ومَظِنَّةُ النشاط، ومنه قول الرَّبِيعِ: أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السِّلَاحَ وَلَا. وقول سعد: ثُمَّ أَصْبَحَتْ بَنُو سَعْدٍ تُعَزِّرُنِي عَلَى الْإِسْلَامِ"(ابن عطية، 1993م، 180/2). تحول حاله كله إلى الخسران، وهنا إشارة من ابن عطية بالمجاز المرسل :(أقيم بعض الزمن مقام كله)، وهو ما يُعرف بعلاقة الجزئية؛ حيث عبَّر بالجزء وأراد الكل، ثم علل تخصيص الصباح بأنه بدء النهار ومنطلق النشاط، والسياق هنا لا يتعلق بهذا، بل التحول إلى حال الخسران الذي اكتنفه وأحاط به؛ إذ صار أحد أفراد الفريق الموصوف بالخسران الملازمين له بما اكتسبوا، والتعبير بـ(أصبح) مع الخسران للدلالة على ما بلغه من شقاء، ففي الصبح تتفاءل النفس وتستبشر، لكن الخاسرين يزداد ما هم فيه من حسرة وبَوَار. ولا شك أن المجاز طريق من طرق الانزياح الدلالي في التعبير عن المعنى.

ويرى القرطبي أنها بمعنى صار، فيقول: "ومعنى ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوانًا﴾ أي صرتم بنعمة الإسلام إخوانا في الدين. وَكُلُّمَا في القرآن ﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾ معنا هصرتم، كقوله تعالى:﴿إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْرًا﴾ (الملك: آية 30)، أي صار غائرا" (القرطبي، 1964م، 164/4)، فظل هنا تدل على الصيرورة والتحول من حال إلى حال، وتصف ابتداء أمرٍ وأنه يدوم .وذكر أبو حيان (أبو حيان، 1420هـ، 278/3) أنها تستعمل بمعنى صار، فلا يلحظ فيها وقت الصباح، بل مطلق الانتقال والصيرورة من حال إلى حال وعليه قوله (سيبويه، 1988م، 89/1):

أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السِّلَاحَ ولَا أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا."

بَيْدَ أنه رَدَّ قول ابن عطية بأن (أصبح) للاستمرار، كما رد تعليله بتخصيص اللفظة بمعناها حيث إنها مبتدأ النهار وفيها مبدأ الأعمال، وأن الحال التي يبدأ بها الإنسان هي التي يستمر عليها طَوَالَ يومه، وعلل أبو حيان اعتراضه بأن لا أحد

من النحاة ذهب إلى ما ذهب إليه ابن عطية، فتستعمل على الوجهين، "أي: اتصاف الموصوف بصفته وقت الصباح، وتكون للانتقال والصيرورة من حال إلى حال"(أبو حيان، 1420هـ، 278/3).

وبتأمل الرأيين أرى أنه لا تعارض بين ما ذهب إليه ابن عطية وما ذهب إليه أبو حيان؛ فابن عطية نظر إلى دلالة (أصبح) في السياق فوجد أنها للاستمرار، ولا يعني ذلك أنها لا تفيد الدلالة على الصيرورة والانتقال كما ذهب أبو حيان، فالانتقال والصيرورة يتبعهما الاستمرار، لكن أبا حيان نظر إليها بوصفه نحويا، يبحث عن الدلالة الزمنية للصيغة، وابن عطية نظر إليها في السياق، فرأياهما يُكْمِل أحدهما الآخر ولا تعارض بينهما.

وفي قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُوا عَلى مَا فَعَلْتُمْ نادِمِينَ﴾ (الحجرات : آية 6)،أي: يصيرون آخذين في الندم متملكا منهم إذ تلبسهم واستدام معهم فلا يفارقهم لحظة، والمراد وصف حالهم الذي صار من غير إرادة وقت دون وقت، كما في قوله تعالى:﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (المائدة: آية 52)،:"معناه يكونون كذلك طول دهرهم، وخص الإصباح بالذكر لأن الإنسان في ليله مفكر مُسْتَتَر، فعند الصباح يُرَى بالحالة التي اقتضتها فِكْرُه، أو أمراضه ونحو ذلك"(ابن عطية، 1993م، 205/2، الزمخشري، 1407هـ، 360/4)، فالاستمرار بحالة مخصوصة يطويها الليل ويسترها، غير أن أنوار الصباح تكشفها وتفضح ما خبَّأه مَنْ ظَلَّ طَوَالَ الليل يعاني آملا ذهاب ما به، فالفعل يحمل دلالات نفسانية؛ إذ يظل النادمون طَوَالَ ليلهم مفكرين من همهم، حتى يخرج ضوء الصباح فيكشف ما ستروا، وهذا أدعى لاستشعار الخسران والندم الذي عليه هؤلاء.وليس ببعيد عن هذه الدلالة ما ذكره امرؤ القيس (امرئ القيس، 2004 م، ص49):

ألا أيّها اللّيلُ الطويلُ أَلَاْ انْجَلِي بصُبْحٍ، وما الإِصْبَاحُ مِنكَ بأمثَلِ

فقد استثقل الليل واستبطأ انتهاءه، واستبشر ببزوغ صبح يوم جديد، تتلاشى فيه آلامه وتزول عنه معاناته، لكنه تذكر أن صُبْحَهُ لا يختلف عن ليله، فهما في المكابدة والجوى سواء.كما أن من دلالة الفعل كشف طبيعة الموصوف، أو المِحْكِيِّ حَالُه، ففي قوله تعالى:﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوْسَى فَارِغًا﴾(القصص : آية 10) ،"(وأصبح)، عبارة عن دوام الحال واستقرارها وهي كظَلَّ، ومنه قول أبي سفيان للعباس يوم الفتح: لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما، يريد استقرت حاله عظيما"(ابن عطية، 1993م، 278/4، الرازي، 1420هـ، 581/4)، فأم موسى عليه السلام . بعدما كان طفلها الرضيع في حِضنها، ما لبثت أن وجدته تتقاذفه أمواج اليم فانخلع قلبها وأُفرِغ" من كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى عليه السلام"(النحاس، 1409هـ، 160/5)، لكنها في سياق بيان حال أم موسى عليه السلام لا تدل على دوام الحال ولا استقرارها؛ فقد كان حال فؤادها فارغا هَلِعًا إلى أن ربط الله عليه، فثبت واستقر، فلولا أن ربط الله على قلبها لأودت به، وانكشف أمرها، وأصبح هنا تُستعمل في بلوغ الشيء في الوصف كماله ونهايته. وفي" أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما" دلالة التحول إلى العظمة والتمكين، ثم الاستقرار والثبات على ذلك.

أما ذهاب البقاعي إلى أن (أصبح) أي عقب الليلة التي حصل فيها فِرَاقُه، "فؤاد أم موسى" أي قلبها الذي زاد احتراقه شوقا وخوفا وحزنا، وهذا يدل على أنها ألقته ليلا"(البقاعي، د.ت، 148/14)، فتقييد هذه الدلالة زمنيا

وتخصيصها بالصبح يأباه السياق والحال، فـ(أصبح)هنا تدل على استمرار الحال الذي كانت عليه أم موسى من خوفها على وليدها، ودامَ هذا الحال القَلِق حتى رد الله إليها رضيعها، فسكنت نفسها وقرت عينها، ولم يذكر دليلا على قوله بأنها ألقته ليلا.

ومن دلالات (أصبح) كون الموصوف مُتَلَبِّسًا بالصفة مُتَّصفا بها، بلا دلالة على بلوغه نهايتها، ففي قوله تعالى :﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾(القصص : آية 18)، "أصبح عبارة عن كونه دائم الخوف في كل أوقاته، كما تقول: أصبح زيد عالما"(ابن عطية، 1993م، 281/4) ، فدلالة (أصبح) هنا الدوام واستغراق الصفة الزمن، وتدل (أصبح) على خلوص الاتجاه نحو الشيء الجديد المتحول إليه، مِنْ كل ما كان قبله، والإغراق فيه، مثال ذلك :﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوْسَى فَارِغًا﴾، "قد فرغ لهمه، فليس يخلط هَمَّ أم موسى شيءٌ"(الفراء، د.ت، 303/2). ويلائمها سياقُ القلق والتوتر المهيمن على نفس موسى عليه السلام، فـ"الفعل (يترقب) معناه عليه رقبة من فعله في القتل فهو متحسس"(ابن عطية، 1993م، 281/4)؛ إذ تملكه الخوف فملأ كِيانه، واستغرق أوقاته، يتلفت من الخوف، أن يسلمه قومه للقتل، فالخوف ممتد، ومما يؤكد هذا أن الصباح وهو وقت يغلب فيه على النفس سكينتها، تحوَّلَ إلى وقت هلع وترقب مما يوحي بشدة الحال، وعِظَم الفساد المستشري في الأرجاء. و"ويحتمل أن يكون دخل في الصباح، أَي في صباح اليوم الذي يلي يومَه"(القرطبي، 1964م، 13/ 264) والترقُّب: تَنَظُّرُ شيء وتوقُّعُه"(الأزهري، 2001م، 113/9)، و(يترقب) أي لازم الخوف، كثير الالتفات برقبته ذعرا من طارقة تطرقه في ذلك"(البقاعي، د.ت، 259/14). ومن دلالتها أيضا: و"يترقب" ينتظر سوءا، والترقب: انتظار المكروه، ينتظر متى يؤخذ به"(البغوي، 1997م، 198/6). هذه الدلالات المعجمية للفعل﴿يَتَرَقَّبُ﴾ تدل على أن (أصبح) في هذا السياق ليست للدلالة الزمنية المعينة، بل هي لوصف حالٍ وبيان هيئة صار عليها نبي الله موسى ـ عليه السلام.

5،4 دلالة (أصبح) في سياق سوء العاقبة

كَثُر ورودها في سياقات بيان عاقبة الكافرين، وتفصيل سوء مصيرهم، فغلب ورود (أصبح) في أحوال الخسران الذي أعقب سوء صنائعهم، مثل :﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (الملك : آية 30(، ففي سياق تعداد نعم الله تعالى على الكافرين، التي تجعلهم يقفون مع أنفسهم فيثوبون إلى الحق، لكنهم عاندوا فـ "وقفهم تعالى على مياههم التي يعيشون منها، إن غارت أي ذهبت في الأرض، ومن يجيئهم بماء كثير واف"(ابن عطية، 1993م، 344/5)، ولما كانت النعمة في الصباح الذي هو موضع ارتقاب الفَلاح قال :﴿أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ﴾ أي الذي تعدونه في أيديكم – بما نبهت عليه الإضافة"(البقاعي، د.ت، 271/20، أبو حيان، 1420هـ، 230/10)، فالإضافة دلت على حيازة الماء وامتلاكه، والنفس إذا فاجأها ما لم تتوقعه كان أشد تنبيها وأكثر إيلاما. وحيازة الماء صباحا يُشعر بتوفر مقومات الحياة؛ مما يُسعد النفس ويبهجها، وافتقاده يجلب الحسرة والهلاك.

ثم قوله تعالى:﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ (الكهف : آية 42)، يقلب كفيه ظهرا لبطن، تلهفا وأسفا على ذهاب نفقته التي أنفق في جنته ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ (البقرة: الآية 259)، وهي

خالية على نباتها وبيوتها"(الطبري، 2000م، 27/18). وذلك أدل على المباغتة مما يوقع مزيدا من العذاب، كما أن الصباح وقت استبشار وإقبال على الحياة في يوم جديد، فمجيء العذاب فيه وحلوله به أنكى وأشد تخويفا. وغالبا ما يكون الحصاد صباحا، فكونه يجده حطاما أشد وقعا على نفسه، فتكتمل الحسرة. ولما لم يرتدع صاحب الجنتين بتذكرة صاحبه المؤمن؛ إذ حذره من الخسار والبوار، "ولما كانت المصابحة بالمصيبة أنكى ما يكون، قال تعالى: (فتصبح) بعد كونها قرة للعين بما تهتز به من الأشجار والزروع ﴿صَعِيْدًا زَلَقًا﴾ (الكهف: آية 40)، أي أرضا يزلق عليها لملاستها باستئصال نباتها، فلا ينبت فيها نبات، ولا يثبت فيها قدم" (البقاعي، د.ت، 64/12). فقد نبهه إلى سوء مصير إذ أنكر الآخرة، وتكبر بجنتيه فأُنذر ببوار ما يفخر به،}أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا{(الكهف : آية 41). وذكر أبو حيان أنه قيل: هي دالة على التَّقْيِيد بالصباح؛ لأَن الآفات السماوية أكثرُ ما تَطْرُقُ ليلا فهي كقوله:﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾"(أبو حيان، 1420هـ،185/7). وليس هناك دليل على ذلك، والمعنى المراد غير مقيد بزمن الصباح، فالصورة تصف ندم وحسرة صاحب الجنتين ، فصار يقلب كفيه بعد خرابهما، ولازمه هذا الحال واستقر معه، ولم يكن عقب حلول الحسبان والدمار بجنتيه فقط.

ونلحظ في قوله تعالى :﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾(الكهف : الآيات 40 .42)، تكرار (أصبح) ثلاث مرات في سياق تحذير المؤمن لمن ظلم نفسه، ونُفاجأ بأن سياق الكلام جاء في نسق واحد منتظم، فما أن انتهى الرجل من دعائه على الرجل المتكبر، حتى أكملته عبارة تخبر بدمار ثمره وخراب جنتيه، مما يدل على سرعة الاستجابة، ولحوق الهلاك بما كان يتكبر الرجل به ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾، وقد تكررت (أصبح) في سياقات الدعاء عليه بالخراب، والقحط وفقدان الماء، ثم الإفلاس وزوال الثروة.

وفي قوله تعالى:﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ (الكهف : آية 45)، حال الاعتبار بزوال الدنيا، كما نلحظ أن دلالة التحول والصيرورة هي الأبرز في (أصبح)، في أجواءٍ تكتنفها الحسرة والندم."فأصبح عبارة عن صيرورته إلى ذلك، لا أنه أراد اختصاصا بوقت الصباح"(ابن عطية، 1993م، 519/3). وقرينة السياق في هذه النصوص تدلل على أمرين: إراد الزمن(الصباح) لبيان شدة ما لحق الكافرين والظالمين من عذاب، والمبالغة في وصف حال الحسرة والخيبة؛ لفقدانهم ما كانوا فيه يتنعمون. والثاني: الدلالة على الدوام والاستمرار، فالمراد بيان ملازمة هذه الأحوال والصفات لموصوفيها فهي لا تنفك عنهم؛ فتعددُّ القرائن يرقى أن يكون دليلا على المعنى المراد؛ إذ يقارب قوة الدليل النصي. "واختيرت هذه اللفظة في القرآن؛ لأن الأمر المقرون به هذه اللفظة، إما في الثواب وإما في العقاب وكلاهما في الزيادة، ولا نهاية للأمور الإلهية" (الرازي، 1420هـ، 99/28- 100).

5،6 دلالة)(ظلَّ) بين التقييد بزمنها وانزياح معناها

معنى ظل: اتصاف المخبر عنه بالخبر نهارا. أي فعل الفاعل نهارا" حمدي، 1998 م، ص93)، أكثر مَنْ ذكروا هذه الدلالة إنما ألجأهم إليها النظر إلى الظِلّ، الذي لا يكون إلا نهارا حيث الشمس ساطعة، ولكن تتم دلالة" (ظل) بأن يراد بها معنى دام أو طال" (ابن مالك، 1990م، 342/1). وتدخل على المبتدأ والخبر، لإفادة الوقت الخاص في الخبر، لاتصاف اسمه بخبره في وقت النهار، بناء على أن غالب الأعمال يكون في النهار، فتقول :"ظلّ زيدٌ يفعل كذا" إذا فعله في النهار دون الليل، وقد يستعمل مع قطع النظر عن الأوقات الخاصّة، فيقال:"ظلّ كَئِبًا"، و"بات حزينًا"، وإن كان ذلك في النهار؛ لأنه لا يُراد به زمانٌ دون زمان.

ومنه قوله سبحانه :﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ (النحل: آية 58)، والمراد أنه يَحْدُث به ذلك، ويصير إليه عند البِشارة، وإن كان ليلًا"(ابن يعيش، 2001م، 357/4- 358). فقد تدل على الزمن الخاص وهو وقوع الفعل أو حلوله نهارا، وقد تدل على الاستمرار دون النظر لزمن معين، فالمراد الإخبار بالفعل واستقراره غير متعلق بزمن. وقد قرن ابن عطية بينها وبين (أصبح) في الدلالة على دوام الحال واستقرارها، إذ يقول:"(وأصبح)، عبارة عن دوام الحال واستقرارها وهي كظَلَّ"(ابن عطية، 1993م، 278/4).

وقد تنوعت دلالة (ظل) وفق السياق الذي وردت فيه، ففي قوله تعالى:﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ (طه : آية 97)، " أي ظلِلْتَ مقيما على عبادته فحُذفت اللامُ ال أو لى تخفيفًا" (أبو السعود، 1990، 264/18) . فتناسب الدلالة بين (ظل) و(عاكفا) من جهة الاستمرار على حال والملازمة له، يبين شدة الإنكار لما اقترف باستدعاء الصورة التي ترسم هيئة عبادته؛ فقد صار بنو إسرائيل له "عاكِفِينَ عليها ملازمين له، والعكوف الانحناء على الشيء من شدة ملازمته" (ابن عطية، 1993م، 60/4)، والعكوف كناية عن الحفاوة وشدة التعلق بالمعكوف عليه، وهذه الدلالة تتناسب دلالة (ظل) التي تبين استمرار الشيء وقتا أطول.

وأصل "(ظَلْتَ) ظلِلْتَ مقيما على عبادته"(أبو السعود، 1990، 40/6)، وملازما لعبادته و(عاكفا)، تؤكد معنى الملازمة والقيام عليه فهو لا يبرحه، فالدلالة الزمنية للفعل (ظل) تُستعمل في سياق يفيد الإقامة على فعل الشيء، واستغراق الزمن دأبا ليلا ونهارا، فهو ممتد بلا انقطاع ولو كان عارضا بسبب حادث ما، وهي نظير(طفق)، ويؤكد هذا معناها الوصفي المبين للحال والهيئة (عاكفا) الذي يبين الملازمة الدائمة. فقد جاءت ظل بمعنى "أقام يفعل الشيء نهارا، ولكنها قد تستعمل في الدائب ليلا ونهارا بمثابة طفق، و(عاكفا)، معناه ملازما حَدِبًا"(ابن عطية، 1993م، 62/4.)

ومن دلالات (ظل) استعمالها وهي في الماضي بدل المستقبل للوثوق من تحقق الوقوع، وفي قوله تعالى:﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ (الروم : آية 51) يقول ابن عطية :"وقوله:(ظلوا)، فعل ماض نزل منزلة المستقبل، واستنابه منابه؛ لأن الجزاء هنا لا يكون إلا بفعل مستقبل، لكن يستعمل الماضي بدل المستقبل في بعض المواضع توثيقا لوقوعه"(ابن عطية، 1993م، 342/4- 343)، هنا دلالة (ظل) الاستمرارية على حال لم ينقطع،

والفعل (ظل) نزل منزلة المضارع لبيان القطع بما يكونون عليه وهو الجحود والنكران لنعم الله عليهم، وأنهم ينقلبون إذا أصاب زروعهم الجفاف.

ويذكر ابن المنير رأيا يخالف ما ذهب إليه ابن عطية؛ إذ يقول بجواز " أن يُراد الظلول نهارا لقصد المبالغة في وصفهم بالعناد والإصرار، وأنهم لو عرجوا نهارا في الوقت الذي لا يتغابى على البصر فيه شيء إلى السماء؛ لتمادوا على كفرهم وتكذيبهم" (ابن المنير الإسكندري، 1407 هـ، 612/2)، يقصد أنهم عاندوا وجحدوا بآيات الله تعالى الدالة على وحدانيته، بعدما عاينوها مبصرين، فكان أولى لهم أن يؤمنوا لا أن يعرضوا، لكن السياق يطلق الدلالة من إسار خصوصية دلالتها على الزمن، وينطلق بها نحو معان متنوعة، فالآيات ليست مُبْصَرَة نهارا فقط؛ إذ هي حاضرة ماثلة في ذَرَّات هذا الكون، بل وفي الإنسان نفسه، فما يراه ابن المنير بعيدٌ عن دلالة السياق، وإن قصد المبالغة فهي مطوية في السياق الذي يحتويها ويدل على ديمومتها، ولعله يقصد الاستمرار على ما هم فيه من كبر وعناد.

ويبين الزجاج دلالة (ظل) على الاستقبال بكونها جزاء للشرط، فيقول :"ومعناه ليظلُّنَّ، لأن معنى الكلام الشرط والجزاء. فهم يستبشرون بالغيث ويكفرون إذا انقطع عنهم الغَيْثُ وجفَّ النبات"(الزجاج، 2004م، 189/4) .فظل تدل على تكرار وقوع جحود الكافرين كلما انقطع الغيث عنهم فجف نباتهم، وقد "حَسُنَ وقوع الماضي في موضع المستقبل لما في الكلام من معنى المجازاة، والمجازاة لا تكون إلا بالمستقبل"(القرطبي، 1964م، 45/14).

وابن معطي يرى أن"ظل بمعنى صار، وهو التنقل من حال إلى حال، كقوله تعالى :﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾(النحل : آية 58)، فيقول :"وإن كان "ظل" بمعنى الإقامة بالنهار صارت تامة بفاعل لا غير"(ابن معطي، د.ت، ص 182)، يستدل ابن معط على أن (ظل) تكون بمعنى التحول والانتقال من حال إلى حال، وأنها لا يمكنها الدلالة على الدوام والاستمرار، بمجيئها ناقصة إذ احتاجت إلى الخبر ﴿مُسْوَدًّا﴾ وأنها لو جاءت مكتفية بفاعلها (تامة) لدلت على الإقامة نهارا واستقرار الحال، وسياق الآية التي استدل بها ابن معطي تدل على أن المراد بـ(ظل) الدوام واستقرار الحال؛ لأن مَنْ بُشِّرَ بالأنثى كان قد بدا حاله في التغير والاكتئاب منذ أن علم بحمل زوجه، وهذا جعله في حال ترقب وتربص بما يولد له، فما أن جاءته الأنثى حتى اربدَّ وجهه وزاد غمه، وهذا خلاف ما ذهب إليه ابن معطي.

وكان الزمخشري قد ذكر أن ظَلَّ بمعنى صار، ويجوز أن يجيء ظل بمعنى دام؛ "لأن أكثر الوضع يتفق بالليل، فيظل نهاره مغتما مربدَ الوجه من الكآبة والحياء من الناس، وَهُوَ كَظِيمٌ مملوء حنقا على المرأة يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ يستخفى منهم مِنَ أجل سُوءِ المبشر به، ومن أجل تعييرهم، ويحدث نفسه، وينظر أيمسك ما بشر به على هوان وذل، أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ"(الزمخشري، 1407هـ، 612/2، 243/4).

ويرى الزمخشري أن (ظل) إنما هي امتداد لما كان في الليل فأكثر الوضع يتفق بالليل، فيستمر في نهاره مغتما مربدَ الوجه من الكآبة والحياء من الناس، فظل هنا دلالتها على نضوح ما بالنفس من غم فهُوَ كَظِيمٌ مملوء حَنَقًا . على الوجه؛ إذ إن الوجه تنعكس عليه الأحوال النفسانية، و ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ مُتَغيرًا تَغَيُّرَ مغموم، والجمل المتتابعة تصور

الحال النفسي الذي عليه مَنْ بُشِّرَ بالأنثى، فظل دل على امتداد حال قد كان ومازال، ويتزايد، فالكآبة بدأت منذ أن اقترب ميلاد زوجه، فقد كان متوجسا من ميلاد الأنثى، فعلت وجهه سحائب الغم، حتى إذا ما أُخْبِرَ بمقدم ما كان يحذر ازدادت رقعة كآبته، فامتلأ كيانه بالحنق، فجملة الحال ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ تؤكد هذا الحال الكامن في نفسه، وتأتي جملة ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ﴾، جملة حال تصف حركة فراره مما يخشى أن يُعير به، وفي تواريه مذلة تنم عن صغار نفسه"(الزجاج، 2004م، 206/3 ، أبو البقاء العكبري، د.ت، 299/2) .

وقد تتبع الرازي وصف هذه الحالة النفسانية فبسطها قائلا :"وذلك لأن الإنسان إذا قَوِيَ فَرَحُه انشرح صدرُه وانبسط رُوحُ قلبه من داخل القلب، ووصل إلى الأطراف، ولا سيما إلى الوجه لما بينهما من التعلق الشديد"(الرازي، 1420هـ، 225/20). وكما خرجت (ظل) عن أصل استعمالها الدال على زمن النهار إلى الدلالة على الدوام والاستمرار، كذلك خرج التعبير بسواد الوجه عن قصد تصوير لون الوجه إلى الدلالة على الكرب الشديد والغم الثقيل الذي لحق بمَنْ بُشِّرَ بالأنثى، فالتعبير ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ "ليس يُرِيدُ السَّوَادَ الذي هو ضِدُّ البياض، وإنما هو كناية عن غمه بالبنت، والعرب تقول لكل مَنْ لقي مكروها: قد اسودَّ وهه غما وحُزنا"(القرطبي، 1964م، 116/10)، فإطلاق اللون ليس مردا بنفسه، بل يُرَاد التعبير بجملته؛ لأن التعبير يصور حالا نفسانيا يُرى على الوجه فكان اللون هو الذي يظهره.

وقد بيَّن ابن عطية الدلالة التي في (ظل) وفق سياقها، مع الإبانة عن الجانب النفسي فيها، في قوله تعالى:﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، فيذكر أن "قوله :﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ عبارة عن العبوس والتقطيب الذي يلحق المغموم، وقد يعلو وجه المغموم سواد وربدة وتذهب شراقته، فلذلك يذكر له السواد"(القرطبي، 1964م، 401/3- 402)، يرسم السياق صورة مستبشعة منكرة لعادات وثنية جاهلية، فقد إربدَّ وجهه وتغيرت سحنته، فأصبح يكسوه سواد بعدما اغتمَّ من الخبر؛ إذ تملكه شعور الهُوْن، وغلبه خوف العار أو الفقر فصار يتوارى من الناس خشية أن يراه أحد فيعيره بما ولد له.

فـ(ظل) هنا لامتداد حال قد بدأ على صورة ما ثم ازداد فقَوِي، وكأن تربص الرجل بمولوده خوفَ أن يأتي ما لا يرغب فيه قد ألقى ظلاله عليه قبل حلوله، فلما حلَّ استمر ما كان عليه من كآبة وازداد.

ونلحظ التقاء الزمخشري وابن عطية والرازي في دلالة الصيغة ضمن سياقها، مع إدراك الجانب النفسي الذي عليه حال الموصوف؛ إذ يقول الزمخشري :"ويجوز أن يجيء ظل لأن أكثر الوضع يتفق بالليل، فيظل نهاره مغتمًّا مربدَّ الوجه من الكآبة والحياء من الناس"(الزمخشري، 1407هـ، 612/2)، ففي الجانب النفسي يصف ابن عطية الحال بقوله :(وقد يعلو وجه المغموم سواد وربدة، وتذهب شراقته)، ويصفه الزمخشري قائلا:(مغتمًّا مربدَّ الوجه من الكآبة والحياء من الناس).وعلل الرازي الهيئة النفسانية فقال :(لأن الإنسان إذا قَوِيَ فَرَحُه انشرح صدرُه ووصل إلى الأطراف، ولا سيما إلى الوجه لما بينهما من التعلق الشديد).

وقد ذكر أبو حيان أن الأظهر أن تكون (ظل) بمعنى صار؛ لأن التبشير قد يكون في ليل ونهار"(أبو حيان، 1420هـ، 488/5، القرطبي، 1964م، 5/ 468)، والسياق هو الفصل، فقد يفرض عليها السياق أو قرائن الأحوال دلالة الدوام والامتداد، وقد ضمَّنَ ابن عطية (ظلَّ) دلالة (طَفِقَ) في قوله :"ولكنها قد تستعمل في الدائب ليلا ونهارا بمثابة طفق"(ابن سيده، 2000م، 6/ 288). أما أبو حيان فقد اكتفى بدلالتها الصرفية، فيقول: "والأظهر أن يكون بمعنى صار، لأن التبشير قد يكون في ليل ونهار"(أبو حيان، 1420هـ، 548/6)، دون النظر إلى تعدد سياقات ورودها فتتنوع معانيها.

وفي قوله تعالى :﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾(الواقعة : آية 65).، جاء تناول المفسرين لـ(ظلَّ) بمعنى الدوام واستقرار حال الملاومة وطرح السرور لما فرط منهم من إعراض عن طاعة الله تعالى، فندموا ولكن لات حين مندم، قال الطبري :"فظلتم تلاومون بينكم في تفريطكم في طاعة"(الطبري، 2000م، 139/23)، فالملاومة ليست مخصوصة بزمن النهار، أو زمن معين، بل دائمة متجددة، ويعقب هذا التلاوم حسرة وحزن يُذهب عن النفس سرورها، فيملؤها ضيقها وهمومها، "معناه تندمون، أي تطرحون الفاكهة عن أنفسكم وهي انبساط النفس وسرورها"(ابن عطية، 1993م، 478/3)، ويعقبه ندم على ما أنفقوا، ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي تَنْدَمُون. وَتَفَكَّهْتُ بالشيء تمتعت به، وقيل: تندمون على نفقاتكم"(القرطبي، 1964م، 219/17)، كل هذه الدلالات تؤكد أن (ظل) في الآية لا تتعلق بزمنها الظاهر المخصوص، فسياقها في يدل على معنى ملازمة اتصاف الموصوف بحال قد ثبت لديه واستقر (ظلَّ) في الآية تامة اكتفت بفاعلها، فلا دلالة على اتصاف اسمها بخبرها، فالأرجح أنها لا تدل على تحول ولا صيرورة، بل تدل على دوام واستقرار للحال الموصوف.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (الحجر: آية 14)، الآية تبرهن على تعنت الجاحدين إزاء آيات الله، فمهما رأوا فلن يؤمنوا، فجاءت الآية تفترض أنهم لو رأوا بأعينهم الملائكة يصعدون ويعودون نهارا لما زادهم ذلك إلا جحودا وإنكارا، "لو فتح الله عليهم من السماء بابا فظلت الملائكة تعرج فيه، يقول: يختلفون فيه جائين وذاهبين ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾" (الطبري، 2000م، 72/17). وذكرت (ظل)؛ لأنه لو رأى الكفار صعود ونزول الملائكة لبيان أن الرؤية لو وقعت نهارا لا غبش فيها ولا توهم، لتسجيل العناد والكبر عليهم، "وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون"(الزمخشري، 1407هـ، 573/2). بناء على أن غالب الأعمال يكون في النهار، "يُقَالُ: ظل يفعل كذا، أي يفعله بالنهار"(القرطبي، 1964م، 10/ 8)، فالمراد من استعمال (ظلَّ) الدلالة على شدة الاستبصار، ورؤية العروج بأعينهم ومع ذلك يجحدون آيات الله، وليس المراد تعيين زمن النهار لذاته. فقد جاء لفظ (فظلوا) "مشعرا بحصول ذلك في النهار ليكونوا مستوضحين لما عاينوا"(أبو حيان، 1420هـ، 470/6)، فالزمن هنا (النهار) ذُكِرَ لإكمال صورة النظر بالحركة وهي الصعود والنزول، فقد كان في وضح النهار، فالزمن جزء من الصورة يتبين المشاهد من طريقه ما عليه الكفار من عناد وتكبر، "فالقصد ليس إلى تخصيص الزمان، بل إلى ذكر ثبوت ذلك الشيء، وأيا من ذلك ذكرت فإنه لا يقتضي من حيث اللفظ نفى الآخر"(الراغب الأصفهاني،

2003م،792/1)، فسياق الكلام يقتضي بيان الاستمرار فيما وُصِف به الموصوف، بلا تقيد بالزمن. وهذه الصورة تبين أنه كان أولى بهم عدم التردد في المرئي، مما يقتضي الإيمان بالله تعالى.

6. الخاتمة

ومن هذه الدراسة وجدنا أن من خصائص (أصبح، وظلَّ): التجرد من الدلالة على الحدث، والانزياح إلى دلالات أخرى تحددها القرائن الخارجية، مع بقاء علاقتهما بالزمن المعهود لهما في سياق بعض الآيات التي تقتضي ذلك. وقد تنزاح (ظل) وتخرج عن مدلول الصيغة الزمنية، وذلك بالقرائن الخارجية والسياق الذي يبني لها دلالة جديدة، أو خاصة بما سيقت من أجله، فدلالتها على الوجود في حيز الارتباط بصفة ملازمة صارت أقرب إلى الديمومة لكشف مزيد من التعلق وعدم الانفكاك. فالصيغة أسهمت في دلالة فُهمت من تراكيب الجمل؛ مما أفسح للدلالة مجالا أرحب مما لو تقيدت صرفيا، وابن عطية لم يقل بالتقيد بالدلالة الصرفية لـ (أصبح، وظل) في كل الأحوال. الانزياح الدلالي له وسائله البلاغية كالمجاز، والكناية، والاستعارة، وكل أسلوب من شأنه انزياح المعنى وهو ما يكشف العلاقة بين البلاغة وعلم الدلالة. والانزياح يكون أشد بلاغة حينما يتعلق بالنص القرآني فتأتي الصورة القرآنية بانزياحها بليغة في دلالتها. وللانزياح أيضا وظيفة جمالية بجانب الوظيفة الدلالية إذ يحدث تأثيرا في النفس لتكون أكثر تفاعلا من المعنى.

إن لهذا البحث وأمثاله آثارا محتملة على مجال اللسانيات والدراسات الدينية أهمها: أولًا، إن العملية الإدراكية والمعرفية والفكرية لدى الإنسان متجددة تحتاج في إخراج معانيها إلى لغة متجددة "فمن الطبيعي أن تكون اللغة المعبرة عن الحياة والفكر متجددة بل مُتَوَثِّبَة التجدد؛ لتلاحق تلك الحياة وذلك الفكر في التعبير عنهما"(محمد حسن جبل، الاستدراك على المعاجم العربية، ص55) ، وثانيًا، إدراك أهمية التطور الدلالي وهذا أهم مجالات اللسانيات الحديثة، وتزداد أهمية هذا التطور والانزياح الدلاليين أهمية لتعلقهما بمعاني القرآن والسنة النبوية وبتعبير ابن تيمية رحمه الله يقول:" فيقول: " فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ يَنْشَأُ عَلَى اصْطِلَاحِ قَوْمِهِ وَعَادَاتِهِمْ فِي الْأَلْفَاظِ ثُمَّ يَجِدُ تِلْكَ الْأَلْفَاظَ فِي كَلَامِ اللَّهِ أَوْ رَسُولِهِ أَوْ الصَّحَابَةِ فَيَظُنُّ أَنَّ مُرَادَ اللَّهِ أَوْ رَسُولِهِ أَوْ الصَّحَابَةِ بِتِلْكَ الْأَلْفَاظِ مَا يُرِيدُهُ بِذَلِكَ أَهْلُ عَادَتِهِ وَاصْطِلَاحِهِ وَيَكُونُ مُرَادُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالصَّحَابَةِ خِلَافَ ذَلِكَ. وَهَذَا وَاقِعٌ لِطَوَائِفَ مِنْ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالْفِقْهِ وَالنَّحْوِ وَالْعَامَّةِ وَغَيْرِهِمْ"(ابن تيمية، 243/2005،1) مجموع الفتاوى. وثالثًا، إن عوامل التغير الدلالي للألفاظ متنوعة ومتعددة منها ما هو لغوي ومنها ما هو اجتماعي ومنها ما هو نفسي، ولعل الدرس اللساني الحديث يستفرغ القوى في البحث عن هذه الأسباب للوقوف على ما تنتجه من معان جديدة للألفاظ.

بيد أن البحث قد حدَّ صيغتي " أصبح وظل" لدراسة أثر الانزياح فيهما وتغييره لمعناهما إلى معان جديدة يتطلبها السياق الخطابي لهما، ولعله بذاك يفتح المجال أمام دراسة صيغ أخرى كحروف الجر مثلا ودراسة الثر الدلالي في نيابتها عن بعضها، وأساليب التقديم والتأخير، وأساليب الشرط، والنواسخ.. والباب مفتوح على مصراعيه لدراسة التطور الدلالي في كل أساليب اللغة العربية في القرآن والسنة والشعر العربي.

المراجع

Al-Quran

Abu Hayyan Muhammad Yusuf ‘Ali. (1420H). *al-Bahr al-Muhit fi al-Tafsir*. Tahqiq: Sidqi Muhammad Jamil. Beirut. Dar al-Fikr.

Abu Ja’far al-Nuhas. (1409H). *Ma’ani al-Quran*. Tahqiq: Muhammad Ali al-Sobuni. Jami’ah Um al-Qura. Makkah al-Mukarrah. 1st Edition.

Al-Baqa’ie, Ibrahim ‘Umar Hasan. (n.d). *Nuzum al-Durur fi Tanasub al-Ayat wa al-Suar*. Qaheerah. Dar al-Kitab al-Islami.

Butran Muhammad al-Hadi et al,. (2008). *al-Mustolahat al-Lisaniyyah wa al-Balaghiyyah wa al-Uslubiyyah wa al-Syi’riyyah*. Beirut. Dar al-Kitab al-Hadith.

Fadhil Mustofa al-Saqi. (1969). *Aqsam al-Kalam al-‘Arabi min Haith al-Syakl wa al-Wazifah*. Maktabah al-Khanji.

Al-Farra’. Yahya Ziyad Abdullah. (n.d). *Maani al-Quran*. Tahqiq: Ahmad Yusuf al-Najati et al. Misr. Al-Dar al-Misriyyah li al-Taklif wa al-tarjamah. 1st Edition.

Hamdi Firaj Muhammad Firaj al-Misri. (1998). *Al-Af’al al-Nasikhah*.

Ibn ‘Ashur, Muhammad al-Tohir Muhammad. (1984). *Tahrir al-Makna al-Sadid wa Tanwir al-Aql al-Jadid min Tafsir al-Kitab al-Majid*. Tunis: Al-Dar al-Tunisia.

Ibn ‘Atiyyah, Abu Muhammad Abd. Haq Ghalib.(1993). *Al-Muharrar al-Wajiz fi Tafsir al-Kitāb al-‘Aziz*. Tahqiq: Abd al-Salam Abd al-Syafi Muhammad. Beirut. Dar al-Kutub al-I’lmiyyah. 1st Edition.

Ibn Malik (1990). *Syarh Tashil al-Fawaid*. Tahqiq: Abd Rahman al-Sayyid, Muhammad Badwi al-Maftun. Hijr lil Tiba’ah wa al-Nashr wa al-Tauzi’ wa al-‘iklan. 1st Edition.

Ibn Manzur, Abu al-Fadhl Jamal al-Din Muhammad Mukrim Manzur. (n.d). *Lisan al-Arab*. Beirut. Dar Sodir.

Ibn Mu’ti, Abu Husain Yahya Abd al-Mu’ti.(n.d). *al-Fusul al-Khamsun*. Tahqiq: Mahmud Muhammad al-Tonahi. Isa al-Babi al-Halbi.

Ibn Ya’ish, ‘Ali Ibn Ya’ish. (2001). *Syarh al-Mufassal li al-Zamakhsyari*. Taqdim: Imil Badi’ Ya’qub. Beirut. Dar al-Kutub al-Ilmiyyah. 1st Edition.

‘Izzuddin ‘Abd al-‘Aziz ‘Abd al-Salam. (1996). *Tafsir al-Quran*. Tahqiq: ‘Abdullah Ibrahim al-wahbi. Beirut. Dar Ibn Hazm.

Al-Qurtubi, Muhammad Ahmad Abi Bakr. (1964). *Al-Jami’ li Ahkam al-Quran*. Tahqiq: Ahmad al-Barduni et al. Qaheerah. Dar al-Kutub al-Misriyyah.

Al-Razi, Muhammad ‘Umar al-Hasan. (1420H). *Mafatih al-Ghaib*. Dar Ihya al-Turath al-Arabiy. Beirut. 3rd Edition.

Al-Raghib al-Asfahani. (2003). *Tafsir al-Raghib al-Asfahani*. Tahqiq: ‘Adil ‘Ali al-Syadie. Riyadh. Dar al-Watan.

Sibawaih. (1988). *Al-Kitab*. Tahqiq: ‘Abd al-Salam Muhammad Harun. Maktabah al-Khanji. Qaheerah. 3rd Edition.

Tamman Hassan ‘Umar. (2006). *Al-Lughah al-Arabiyyah Ma’naha wa Mabnaha*. ‘Alim al-Kutub.

Al-Tobari,Muhammad Jarir Yazid. (2000). *Jami’ al-Bayan fi Ta’wil al-Quran*. Tahqiq: Ahmad Muhammad Syakir. Muassasah al-Risalah. 1st Edition.

Al-Zamakhsyari, Mahmud ‘Amr Ahmad. (20023). *Al-Mufassal*. Tahqiq: Sa’id Mahmud ‘Aqil. Dar al-Jil. 1st Edition.

Al-Zujaj, Abu Ishaq al-Zujaj. (2004). *Ma’ani al-Quran wa ‘Ikrabuh*. Tahqiq: ‘Abd al-Jalil ‘Abduh Syalbi. Qaheerah. Dar al-Hadith.

Abdul Ghani Bin Md Din
Fakulti Bahasa Arab,
Universiti Islam Antarabangsa Sultan Abdul Halim Mu’adzam Shah (UniSHAMS)
09300 Kuala Ketil, Kedah Darul Aman
Email: drghani@unishams.edu.my

Omar bin Md Din
Fakulti Bahasa Arab,
Universiti Antarabangsa Al-Madinah
Jalan 2/125e, Taman Desa Petaling, 57100 Kuala Lumpur
Email: omardindin@gmail.com

Ragab Ibrahim Ahmed Awad
Fakulti Bahasa Arab,
Universiti Islam Antarabangsa Sultan Abdul Halim Mu’adzam Shah (UniSHAMS)
09300 Kuala Ketil, Kedah Darul Aman
Email: drrahabibrahaim@unishams.edu.my

Ummu-Hani Abas (Corresponding author)
Fakulti Bahasa Arab,
Universiti Sains Islam Malaysia (USIM)
Bandar Baru Nilai
71800, Nilai, Negeri Sembilan, Malaysia
Email: ummuhaniabas84@gmail.com